وداعًا... حبيبتي بانتظاري

ورود تزيّن الأرجاء، ابتسامات تنير الوجوه، سعادة تتوهّج في القلوب ، جميع الموجودين فرحون.. منهم من يصفّق ، ومنهم من يتفرّج ، ومنهم من يشارك في حلقة الدبكة الكبيرة يضربون أقدامهم في الأرض ضربات متوازنة مع إيقاع الفرقة الموسيقيّة فتلهب الحماس في النفوس... كيف لا واليوم عرس فاضل ، حبيب الجميع. أقرباء، أصدقاء، زملاء عمل.

أما الأهل،

فهم هناك، هناك ، بعيدون.

لم يتمكّن من إحضار أحد منهم عدا مجدي.

وقد حضر بعد جهد جهيد.

الأكف تصفّق. والأغنيات تتوالى. تزداد حماسًا ويشتد التصفيق.

ومجدي واقف بينهم معهم وليس معهم. جسده هنا كفّيه يتضاربان بانتظام ويصدرا صفقة مماثلة للأنغام ، عيناه تتابعان الراقصين والمصفّقين والمتفرّجين . أمّا أين عقله وقلبه فهي هناك. وسط النور والفرح هنا يفكر بالظلام المخيّم هناك والحجارة التي تملأ الجيوب والمحاجر.

فرح بعرس أخيه ، نعم ، إلا أنّه لا يتمكن من شق ابتسامة حقيقية عن شفتيه .

وتهرب الدماء من عروقه.. كيف استطاع أن يتركهم هناك ويأتي ليشاركهم احتفالاً كهذا حتى ولو كان هذا الاحتفال عرس أخيه الكبير الحنون الذي بذل شبابه ليعمل ويقدّم لهم كل ما يلزمهم.

كيف بإمكانهم إقامة الأفراح.

ويضرب كفًا بكفّ. أكثر وأكثر. فقد تذكّر ما أتى من أجله. يجب أن يتجلّد. أن يصبر.. ويتلفّت ليرى هل يراقبه أحدهم. وجوههم متشابهة. ابتساماتهم متشابهة. لا يعرفهم ولا يهمّه أن يعرفهم. قبل مجيئه كان متلهفًا للحضور. أعتقد أنّه بمجرّد وصوله سيتجمّع كثيرون حوله ليسألوه عن أخبار الانتفاضة ، نفسية الشباب ، معاناتهم ، ما يحتاجون ، وما يخططون ؟

لكنهم خيّبوا أمله.

أحس بداخله قطبًا سالبًا يجعل الاقتراب منهم والالتصاق بهم أمرًا مستحيلاً. فقط هاتان العينان الجميلتان تراقبانه باستمرار ، تستمعان لكل ما يقول ، وتنخفضان باستحياء كلما رآهما.

- ما بك تجلس بمفردك يا مجدي. هيا إلى الداخل. الحفل ليس لأخيك وحده.

- بل له وحده. لا أحد في الداخل يعرفني، ولا أعرف أحد، ما الفرق في بقائي هنا

- لا. أغالطك صحيح أن معظمهم لا يعرفونك شخصيًا.. لكن أخاك قد حدّثهم عنك كثيرًا وجميعهم بشوق للتعرّف عليك... لقد طبل وزمر يوم استطعت الحصول على الموافقة للخروج من الضفّة والمجيء إلى هنا.. لم يكن ينقصه إلا أن يعلن ذلك في الصحف والمجلات.

- تلك الإعلانات المشابهة للنعي.

- ماذا ؟

- لا عليك. عفوًا اتركني. لا أريد أن أعكّر صفو الحفل. إنه فرح أخي لكن صدّقني لا أستطيع تمالك نفسي. لا أتمكّن من الانخراط في فرحكم. والله لا أدري كيف باستطاعتكم أن تفرحوا وتبتهجوا وتنفقوا كل هذه النقود لإقامة أعراسكم.

- ولكن، ما أدراك ماذا فعلنا ونفعل. لا يغرنك فرحنا واحتفالاتنا الآن. إلا أننا امتنعنا عن ذلك سنة كاملة دعمًا للانتفاضة. لم نستقبل في الأعياد ، لم نحتفل بالأعراس ، وجمعنا مبالغ كبيرة ، لم نقصر أبدًا ، لكن الحياة ستستمرّ.

- أنتم تعتقدون ذلك.! آزرتم الانتفاضة ، امتنعتم عن الاحتفالات ، وبعد.

- هيا.. هيا دعنا من هذه المناقشة الآن وادخل معي إلى الصالة. سيفتقدك أخوك. لا تعكّر مزاجه، اليوم فرحه.. يكفيه أنّه لم يستطع أن يرى ضحكتك منذ وصولك أرجوك اضغط على نفسك.

- لا بأس.. لا بأس. اسبقني أنت. سأستمع إلى البرنامج. لن يطول الأمر. ربع ساعة فقط وألحق بك.

- ما قصة هذا البرنامج. وتشديدك على سماعه كل يوم. البرنامج يذيع رسائل من الأهل في الأرض المحتلّة وأنت لم يمضِ على وصولك سوى أسبوعين هل تعتقد أن أحدًا سيرسل لك شيئًا خلالها.

- نعم أنا مضطر لسماعها. أرجوك.

- هي حبيبة إذن.؟ أخبرني.

- هه.. حبيبة ؟

- إذن اتركه وهيا ندخل.

- أرجوك لا تفقدني أعصابي ودعني.. سألحق بك.
- حسنًا.. سأرسل من يحمل حجّة أقوى منّي لإقناعك.
ويضع السماعة على أذنه حتى لا يسمع الضجيج ويصغي بانتباه شديد.
أنا... أهدي سلامي إلى أهلي.
أنا..... أهدي سلامي إلى .....
يرفع السماعة دون أن تتغيّر ملامح وجهه. لم تصل الرسالة. لم ترد الإشارة بعد عليه أن ينتظر. لا بأس.
الأفق بعيد أمامه. يمتد نظره دون أن يصطدم بكل الجدران التي تقابله. يصل إلى منزله هناك. أو بالأحرى منزل صديقه. المقرّ الرئيسي حيث يتّفقون لتحديد الموعد. يتساءل تراهم ماذا يفعلون. يبدو أن الساعة لم تحن بعد. عليه أن ينتظر. يبدو أنّه لن يستطيع رسم الفرح على جبهته ليفرح أخاه الذي تعذّب كثيرًا في استخراج إذن الزيارة (فأنت لتخرج يلزمك إذن ولتدخل يلزمك آخر).. ليحاول.. نظر إلى نفسه في المرآة المعلّقة في الممر الذي يفصل الصالة عن الحمام. فوجد وجوم الدنيا كلها مرتسم على محيّاه.
عاتب نفسه وكاد أن يكلّم صورته قائلاً: لا هذا كثير. لن يفهموك. لن يحسّوا بك. عليك أن تمثّل قليلاً. وجومك لن يفيد. سيطلبون مبررًا وأنت لا تملك الإفصاح عن السبب الذي يقض مضجعك. لذلك اتركه بعيدًا. تجاهله. ليس من السهل فعل ذلك لكنك مضطر. دعه وادخل إلى الصالة.

اقتربت صاحبة العينين الجميلتين قائلة:
- أنا فاتن. هل تذكرني التقينا في منزل العروس. أرسلوني لإقناعك بالدخول.
- كنت داخلا.
- هيا إذن. مع أنني أوافقك الرأي تمامًا في كل ما قلته للعم.. لندخل الآن ونتكلّم فيما بعد.
وبدخوله يشتدّ حماس الشباب.
- هيا. امسك الدبكة معنا. تابع إيقاعنا.
- لا دعوني خارجًا.. أنا مسرور لرؤيتكم ترقصون. ليجعل الله أيامك هناء وسعادة يا أخي..
- شكرًا. شكرًا. تعال. تعال امسك يدي يا سندي. هيا حرّك أقدامك على الإيقاع مثلنا. لا تفسد اتّجاه الأقدام.
- دعوني خارجًا أفضل لي ولكم.. صدّقوني أنا مسرور جدًا برؤيتكم فرحون.. سأصفّق لكم
- لا التصفيق وحده لا يكفي.. يجب أن تشاركنا...

ويكاد يعلو صوته صاخبًا. سنتين كاملتين بل أكثر وأنتم تتفرجون. وتصفّقون لنا لماذا قبلتم بهذا الدور لأنفسكم ولا ترتضونه لي الآن. يخمد صوته. لن أفسد فرح أخي. ليفعلوا ما يشاؤون. مهمتي بانتظاري ويجب ألاّ أفسد أي شيء.
ويضرب كفّيه بشدّة ليسيطر على الغضب الذي يغلي في داخله.. يفرحون.. يرقصون..يزغردون.. يعتقدون أنهم يعيشون.. وهناك في الأفق البعيد... حيث قلبه ووجدانه الفرح له طعم آخر.. الزغاريد تطلق في مناسبات مختلفة تمامًا. الأعراس. أية أعراس تقام. والأرض تسلب شبرًا بعد شبر. والوطن يختنق يومًا بعد يوم...
ويضرب كفّيه بشدة أكثر. ويشقّ الابتسامة بعنف. ويتجوّل بنظره على الموجودين. من بعيد يلمح فاتن تنظر إليه.. يبادلها الابتسام ويشيح بنظره عنها. ثم في غفلة منها يهمّ بالانسحاب. حين يربت على كتفه أحدهم بلطف: هل تسمح لي بكلمة في الخارج.
- أنت لا تعرفني.. وأنا لا أعرفك لكن أشعر أن طريقنا واحد..
- ماذا...؟؟
- باختصار وحتى لا ينتبه أحد لحديثنا. يقول لك أبو الحبيبة لا تنتظر الرسالة من المذياع. لأن الخطة رقم ٥ فشلت.. وقد استلمت الإشارة.. اعمل على الخطة رقم ٨٨. وكن حريصًا جدًا.
- وكيف أتأكّد من كلامك..
- رقم رسالتي ٥٩ وإسمي أم الحبايب.
- صدقت والله وأرحتني. تعال لنكمل معًا فرح أخي.
- مبروك ، أعتذر. يجب أن أذهب.. أمور كثيرة تنتظرني.. ليكن الله معك يا أخي وليكثر من أمثالك.
- لقد حدّثنا أبو الحبيبة كثيرًا عنك وعن جماعتك. يبدو أن العمل هناك فقط.. هنا كل لاه بنفسه وليس على استعداد لسماعك.. وأن تبرع لك اليوم قد يفتّش عن حجة غدا.
- المهم أن نحافظ على حماسنا... فبدايتنا هذه لا تنجح إلا بالاستمرار.. والله معنا
- أهلا عامر.. ماذا تفعل هنا..
- أ.. أ.. أهلا سمر، كيف حالك.
- عرفت من فاتن أنك مسافر.
- صحيح.. وصلت منذ نصف ساعة فقط، لذلك جئت للبحث عن فاتن. أين هي..

- هل تعرف مجدي..
- أعتذر فأنا مستعجل جدًا. وتعبان. تشرّفنا بمعرفتك سيد مجدي.
- مع السلامة يا...
- عامر.. اسمه عامر. أين تعرّفت عليه.
- أتركينا من عامر الآن وحدّثيني عن نفسك لا يبدو أنك في غاية السرور ألم يعجبك الحفل
- إذا قلت لكَ رأيي ألا تزعل.
- ولمَ أزعل ؟
- لأنه حفل زفاف أخيك.
- لا قولي رأيك بكل صراحة...
- الحفلة حلوة لكنها على نطاق ضيق جدًا.. أقصد لا يوجد غير الأهل.. كنت أتوقع ضيوفًا أكثر.. تعرف! وجود وجوه جديدة يثير الحماس.. ويشعرك بالإثارة..
- الحماس والإثارة كيف..
- تلفت النظر. تتعرّف على أشخاص جدد. تخلق علاقات جديدة. هي دورة الحياة وليس هناك فرصة أجمل من الأعراس. ألست معي في ذلك.
- طبعًا. طبعًا. عن إذنك يبدو أن أخي يبحث عني.
وعلت الأصوات في الداخل. العريس يدعو إلى العشاء. أين الضيف. أين الأخ الضيف. يريد أن يرفع الغطاء عن خروف الوليمة على شرف الأخ الضيف. أين أنت يا مجدي ؟
- رأيتك تتحدّث مع سمر. كيف وجدتها؟؟
- سمر. من سمر.
- ابنة خالتك يا ولد هل تريد أن تنكر أنك كنت تقف في الخارج معها. هل أخطبها لك. ونجعل الفرح فرحين.
- لا.. لا يا أخي لقد فهمتني خطأ. سمر؟. ها..
- لماذا. إذن أبحث عن غيرها. الصبايا كثيرات. ما رأيك بفاتن صديقة عروستي. فتاة مثقّفة وطيّبة جدّا ثمّ هي تحمل أفكارًا مشابهة لأفكارك تمامًا.
- فاتن... على كل حال أنا لا أفكّر بهذا هنا..
- هل هناك من ينتظرك هناك.
- نعم يا أخي حبيبتي هناك بانتظاري.
- لم لم تخبرني عنها. ما اسمها ؟ هل أعرفها ؟
- أعتقد أنّك تعرفها ولا تعرفها . أعني كنت تعرفها. هي الآن غير ما كنت تعرفها. أحبها.. أعشقها. تضاعف اليوم شوقي إلى احتضانها. إلى تقبيلها والتمرغ في حجرها.. مكاني هناك. بين ذراعيها.
- مهلك، مهلك.. ماذا جرى لك..
- ما جرى لي كثير. لن تفهمني أبدًا.
- مبروك يا عريس. مبروك يا عروس.
ويتوالى المهنّئون..

تقترب فاتن،
- مجدي أريد أن أتحدّث إليك قليلاً..

ويهمس العريس في أذن أخيه..
- إذهب يا عم.. إذهب.. بدلاً أن تذهب أنت للتعرّف عليهن.. ها هن يأتين إليكم ،اذهب ، فاتن طبيبة متخرّجة منذ عدّة أشهر فقط..

- أهلا فاتن..
- هل بإمكاننا الخروج من هذا المكان.
- ماذا هناك. خير.
- خير إن شاء الله.
في الخارج أمام النافذة المفتوحة.
- مجدي هل تعرف أخي عامر.
- ...
- رأيتكما تتحدّثان...
- يبدو أنكِ مراقبة ماهرة.

- من يسمعك يعتقد أنه لا هم لي إلا مراقبة الناس مع أنني لا أريد الموت همًا.
- ما الأمر الذي تريدينني لأجله.
- طالما أنك تعرف عامر ولم يسبق لكما التعارف أمامي لدي شعور أنكما تعملان معًا.
- ...
- أعرف أنّه ليس باستطاعتك إجابتي إذ لا بد أن تكون كتومًا مثله. صدّقني أحس بذلك.
- إذن...
- قبل أن أطلب منك المساعدة أود أن أحدّثك عن نفسي هل تمانع.
- أبدًا تفضّلي.
- منذ أن استشهد والدنا ، قرّرت أن أدرس الطب وأتطوّع في منظمّة الصليب الأحمر الدولية لتكون خدمتي فعّالة بجانب أبناء بلدي. وكذلك عامر اختار لنفسه طريقًا لا أعرف عن تفاصيله الكثير لكنّي مطمئنة عن اختياره. بالنسبة لي فقد وفّقني الله وتخرّجت طبية بدرجة ممتاز منذ عدّة أشهر. حين برزت المشكلة الكبرى وهي أن جدّي لم يوافق على ذهابي إلى هناك بحجة أنه ليس لي أحد هناك بعد زواج أمي. وأنا لا أريد أن أجد عملاً هنا وأعيش بشكل روتيني مميت وقلبي هناك مع الانتفاضة.
- ألم تشاوري عامر ؟
- بالتأكيد فعلت. لكنه لا يسمح لي بمشاركته عمله وأسراره هنا. ويقول لي انتظري حتى تمر الشهور الستة ويكون بإمكانك الذهاب مجددًا إلى الضفة في زيارة وهناك إبحثي لنفسك عن حل.
- ولماذا الانتظار ستة شهور.
- لأن جدّي يسمح لي بالذهاب لزيارة أمي كل سنتين. لا تتساءل لماذا أسألك أنت بالذات، قلت لنفسي أنت تعيش هناك وتعرف كل شيء عن البلد فربما كان باستطاعتك مساعدتي. وأخفضت عينيها بكل دلال إذ أحسّت بجرأتها..
- ليت بإمكانك الذهاب فالشبيبة هناك بحاجة إلى طبيبة تحمل حماسك تداوي جروحهم..
- ما العمل ؟ أنا محتارة.
- أليس لك عم أو خال هناك بإمكانك اللجوء إليه ويتكفّل الوصاية عليك تجاه جدّك..
- ليس لي إلا خالي وجدّي لا يوافق على بقائي عنده لأن ابن خالي شاب. أتعلم يا مجدي لقد مللت الحياة هنا. معظم الفتيات والشبّان حولي يعيشون فراغًا حياتيًا قاتلاً لم أتمكّن من الانخراط فيه. همّهم اللبس والحفلات وأفلام الفيديو واللهو. ومن كان منهم ملتزمًا وعاقلاً تراه ضاع في دوامة الحياة العملية غير المنتهية لتأمين مستقبله المادي غير آبه بشيء آخر. وأنا أحس بالعمل الفدائي يغلي في دمي مع أنّني أدرك مخاطره ومستعدّة لها وجدي يريدني عروسة في برج عاجي.
- إذن اجعلي أمنيتك وأمنيته في خندق واحد. وليكن برجك العاجي هناك. حينها تحقّقين كل ما تحلمين به. فالشبان عندنا جميعهم متحمّسون. جميعهم مندفعون. ولا شكّ ستجدين من تشاركينه دربه بهذا الحماس الذي أرجو ألاّ يخبو أبدا.
- أتعتقد ذلك. ليت الله يسمع كلامك ، ويحقّق حلمي وأجد رفيقًا لدربي أساعده في نشاطه. أدفعه بحماس.. أداوي جروحه وجروح رفاقه.. أركض وراءه لأمدّه بالحجارة..
- هذا هو الحل الوحيد يا فاتن. أتمنّى لك كل التوفيق...
- هل سأراك عندما أحضر إلى هناك ؟ وهل ستعرّفني على رفاقك ؟
يتطلّع بعمق إلى هاتين العينين اللتين تقولان الكلام كله. أتراه يتمنّى أكثر من هذا في شريكة العمر ! لكن ، لا مكان للاختيار. والوطن ينزف والجرح كبير.
- لو كنت هناك سأفعل بالتأكيد. فقط أقول لك اصبري وتدرّبي جيّدًا إلى أن يحين موعد سفرك. وستجدين حلاً مناسبًا. هيا لندخل الآن أظنهم افتقدونا.
ويمسك بيدها لحظة ويشدّ عليها. تنظر إليه. تحاول أن تفهم. يهرب من عينيها قائلاً:
- ستعرفين كل شيء في الوقت المناسب. اعذريني الآن.

- أين كنت يا مجدي كل هذا الوقت مع فاتن. قل لي هل أعجبتك ؟
- النعم والخير من الجميع. يبدو أنها فتاة ممتازة.
- لنتّكل على الله إذن.
- قلت لك عروسي هناك. بانتظاري. فقط أستأذنك بأن أغادر في الغد.. وأن أتمّ عرسي فور وصولي..
- فاجأتني يا مجدي. أبدًا لم تذكر لي شيئًا من هذا القبيل..
- كنت مشغولاً يا أخي ولم أرد أن أشغلك أكثر. لا تهتم فأنا باستطاعتي تدبّر أمري لم أعد صغيرًا.
- يبدو ذلك. فقد كبرت في غفلة مني.

- مبروك يا عريس. مبروك يا عروس. بالرفاه والبنين.
- شكرًا يا سيّد رمزي.
- ماذا.. يبدو أنك نسيت العروس ورحت تتحدّث مع أخيك.
- لا .. لا.. سنتابع حديثنا فيما بعد.

وانطلقت الزغاريد.. وعزفت الموسيقى زفّة العروسين ، فقاما يدًا بيد. للصعود إلى غرفتهما في الفندق. ليبدأ شهر العسل.
خلفهما الأقرباء والأحباء يصفّقون ويطلقون الزغاريد ويتهامسون ويضحكون.

- أتمنّى لك كل الخير يا أخي. وأنتِ يا زوجة أخي العزيزة هو أمانة بين يديكِ.
- في عيني... العقبى لك.
ألف مبروك... ووداعًا.
- قل إلى اللقاء غدًا...
- ألم أقل لك يجب أن أغادر.
- هل صممت على ذلك ؟
- نعم يا أخي. أرجوك. حضرت فرحك واطمأننت عنك... وداعًا.
وتعانق الأخوان. عناقًا كاد يفتّت قوة مجدي وعزمه على الرحيل. نظر إلى فاتن وهي واجمة تراقبه و تتابعه. وشدّ على أخيه أكثر.
في هذه اللحظة فقط أحسّ أنه ذاهب. ذاهب إلى غير عودة. هو عناق الوداع. هو عناق الفراق.
وداعًا يا أخي. وداعًا حبيبتي بانتظاري. أنت لم تعش بيننا. خرجت باكرًا لم تجر في عروقك تلك النار التي تغلي في دمي.
وداعًا يا أخي.. لم تنم مع خلاياك تلك الأحجار التي تتهاوى كل يوم من منزل لتشرّد عائلة أو أكثر. كنت بعيدًا دائمًا. لم تحس بالذل الذي نذوقه كل ساعة وكل دقيقة. فقط كنت ترسل المال. وتسأل عن الأحوال وتنتظر الرسائل المطمئنة.
لم تكن يومَ طفح الكيل ولم يعد بإمكاننا السكوت.
يوم خرجنا من مخابئنا أقوياء أقوياء.
اعذرني يا أخي. لأنني لم أخبرك عن مخطّطاتي. أعذرني لأني لم أبح لك بسرّي. فهو شرفي. وأنت من طلب من أمي أن تعلّمني احترام الشرف لأن أبانا رحمه الله كان يعتبره قمة الأخلاق ولم يكن أو تكن مخطئًا ابدًا.
وداعًا يا أخي... وسامحني لأنني لم أستطع أن أبقى بقربك... أستمع إلى الأخبار وأتفرّج. وأصفّق وأحزن..
سامحني لأنني استخففت في داخلي أفكارك وطريقة معيشتك.. لكني ذاهب عني وعنك. عرسي سيكون شرفًا لك.
وأنت يا فاتن... وداعًا... وداعًا مصيري بانتظاري والقلب لا يتّسع حبيبتين.

- ما بك تزغردين يا أم سمر. هل خطبت سمر. ماذا ؟؟
أتزغردين أم تبكين أمرك عجيب... لماذا أرسلت في طلبي سريعًا.

- تعال يا عريس تعال ، أرسلت أمك خبرًا مع جماعة وصلوا اليوم من بيت ساحور تقول زغردي يا أم سمر زغردي يا أم سمر زغردي فقد استشهد مجدي مفجّرًا بنفسه في سيارة جنود وقتل معه خمس إسرائليين وجرح عشرون. كان ذلك في طريق عودته إلينا من عندكم. لم نره لكننا أقمنا عرسه البارحة.

هناء كرم.
١٩٩٠